الشعلة المقدسة

(أحبّ الشاعر فابتلى بالوشاية بينه وبين حبيبته ؛ فساورته نفسهُ بالميل عن الحبّ ، ولكن شعلة الحبّ المقدس اجتذبته فى النهاية)

الشاعر (فى مناجاته) :

يا بَهِيَّ السنا وعذبَ الحيَّا ... مَن بحق الهوى سَمَى بيَ عندكْ ؟
أنتَ روحى وكعبتى ورجائى ... كيف أحيا ؟ وكيف أسعدُ بعدَكْ ؟
كنتَ أوفى العباد براً فقل لى : ... أىُّ شىء تُراه غيَّرَ عهدَكْ
ما تحوَّلتُ عن ودادكَ يوماً ... فلماذا حرَمتَ قلبىَ وُدَّكْ ؟
لستُ أقوى على جفاكَ فجدْ لى ... بهلاكى ولا تُبحْ لىَ صَدَّكْ !

(بعد سكوت ولهفة) :

سائلوه مَنْ وشى بى عنده ... فتغاضى فتنامى فجفا
أشجاهم أننى همتُ به ... ورأوه فى ودادى منصفا ؟
فثنوه عن محبّ واله ... طالما حنَّ اليه وهفا

* * *

أيها الهاجرُ حَسبى محنة ... أن أرى وُدَّكَ ولَّى وعفا
يا حبيبى ذابت الروحُ أسًى ... وفؤادى ما تسلى أو غفا
أنا لولا نفحةٌ من خلدى ... دَرَأتْ عنى الردى والتلفا

ما رأيتم غيرَ غصنٍ ذابلٍ وخيالٍ شاحبٍ قد وجفا
فارحموا صَبّاً نحيلاً شفّهُ هَجرُ من يهوى فأمسى مدنفا
لا تظنوا أنني أبغضتهُ بعد ما صدَّ ووالى السَّرفا ؟
أنا لا أخفرُ عهدي معه ويحَ مَنْ يجحدُ وداً سلفا

(ثم يخيل اليه أن حبيبته سلته ونسيت وداده فيقول) :

فقدتُ الأمانيَ من هواكِ وليتني فقدتُ حياتي حين ضاعت أمانيّا
ففقدُ حياة المرء في ظِلِّ إلفهِ أحبُّ وأحلى من سُلاف اللَّماريّا
وهبتك قلباً طيعاً لكِ مخلصاً يحقق ما تبغي ويجفو المعاديا
فبعتِ ببخسٍ حبَّه ووداده وأسلمته للموت وهانَ صاديا !

(وحينئذ يحنق على الجمال والحب ويتبرم بهما قائلاً) :

إلامَ خضوعي لبطش الجما لِ وصدِّ الحبيبِ وذلِّ السهرْ ؟
سأنسى الهوى وأروض الفؤادَ على تركك من فاتني بل هجرْ

(ثم يتهيأ للنوم وهو يتأسَّى بهذين البيتين) :

لا تلومي إذا هجرتك ، إني قد رأيت الهوى ظلوماً مذلا
بعت روحي اليك لم ارج شيئاً غير بعض الوفاء فازددت ذلاً

(ينام فيرى في نومه كتاباً أرسلته اليه حبيبته بينما يأتي طيفها فيحلق في سماء الحجرة مترنماً بهذه الأبيات) :

يا نائماً ما نسينا وداده وهواهْ
كم صغت فينا قريضاً تعنو اليه الجباهْ
يا فانياً في هوانا مَن للجفاء هداكْ ؟
ترى هويت سوانا ؟ فغاب عنّا سناكْ ؟

(يصحو الشاعر ويردِّد هذين البيتين) :

مالي صحوتُ شجيَّةً كبدي جمُّ الحنينِ مضاعفَ الكمَدِ ؟
من ذا أثار جواي ؟ واحرَقي ! وأنا الذي هصرَ الجوى جسدي ؟

(ينصت للطيف ثم يقول) :

ماذا ؟ أأسمعُ صوتاً كاد من وَلَهٍ تَدْمَى مقاطعه الريَّا من الألمِ ؟
أجل ! فذلك طيفٌ هاتفٌ غَرِدٌ لا أستبين صدَى ما حاكَ من نغمِ

(يقرب منه الطيف منشداً)

يا أطهر الناسِ قلباً وأصدقَ الناس وُدّا
وأشرفَ الناس حُبّاً وأوثقَ الناس عهدَا

* * *

هتفت بحبِّنا حينا وكنتَ كبضعةٍ منّا
ولذتَ مدّى بوادينا فما لك تنثنى عنّا ؟

(يردِّد الشاعر البيتين الأخيرين ثم يقول) :

أطيفٌ بعدَ أيامٍ ثلاثٍ جاءنا زائرْ ؟
وقبلاً قد تمنّاه فؤادى الذابلُ الحائرْ
نسينا الحبَّ والأحبا بَ مُذْ صَدُّوا وما خُنّا
كفى يا طيفُ أحزاناً وسُهداً قرِّح الجفنا !

(يتهيأ للنوم وهو يتابع حديثه) :

بربِّكَ خلِّنى أغفو لأنسَى بعضَ آلامى
عييتُ بروحىَ الحيرى وقلبى الخافق الدامى

(يحاول الطيفُ إيقاظَه قائلاً) :

أفقْ يا صاحِ لا تغفُ فقد هيجتَ أشجانى
أجبنى ! هل ترى تصفو ؟ ويصفح قلبك الحانى
أفقْ يا شاعرَ الحبِّ ! وغنِّى بعضَ أشعارِكْ
وأترعْ مُهجتى الظمأى بخمرى لحنِ مزمارِكْ

(الشاعر للطيف بعد أن ينبِّه) :

بربكَ عُدْ لأهليكا وبلِّغهم تحيَّاتى

وقُلْ ذابَ الوفىُّ وما تَبقَّتْ غيرُ أنَّاتِ !
سيلفظها لينجوَ مِنْ شُرور العالم العاتى
ويمرحَ فى رياضِ الخلد مجهولَ النهايات
يرتل فيه ألحان التبتّل والعبادات
ويرشف فى خمائله أريجاً من سنا الذات (١)
ويشدوَ للملائك خيرَ أنغامٍ وآيات
ويروىَ بالنشيدِ العذبِ سكانَ السماوات
سئمتُ العيشَ من دنيا الهموم وساحةِ الإثمِ
وعِفْتُ الناسَ إلا أنفساً عَفَّتْ عن الظلمِ
فكم أوذيتُ من صحبى وكم حُوربتُ من قومى
أناسٌ قلما يدرو ن ما شجوى وما همّى
شقيتُ بهم فليتىَ ما وُلِدت ولا رأوا رسمى
ولا باتوا يرون الخَيْرَ فى لَوْمى وفى ذمّى !

* * *

ولكن كيف أخشاهم وما قارفت من جُرمِ
سموتُ على مَداركهمْ وسدتُ على الشُّها باسمى
فحاروا ... كيف لا أُعنى بما أهريق من كلمى !
وكيف أقابل الأحدا ث فى صبر وفى عزمِ
فجدُّوا فى مُناواتى فلم أعبأ ولم أُصْمِ
ولم أحفلْ بجمعهم ولا بادلتهم سهمى

(الطيف للشاعر فى ذهول) :

كأنك يا رسولَ الشعر عِفْتَ الحُبَّ والحُسْنَا

---

(١) الذات العلية

ولن تَرِدَ الجمالَ ولن تُرتِّل فى الهوى لحنا
وكنتَ الشاعر الفذَّ السبوقَ الساحرَ المعنى
فويح الحب ! مَن للحب يحييه ومَن يُعْنَى ؟
ومَنْ للحسن إن تجفو ه فاصدحْ واطرب الكونا

(طيف الجمال للشاعر) :

سلاماً شاعرَ الحبِّ مِن المضنى لا لامكْ
خَلَدْتَ بشعرك السامى وذقتَ السحر من جامكْ
أراكَ مبدَّدَ الأحلا مِ مشدوهَ النهى ثائرْ
فمن أوْرَى الأسى فى قلبك المعمودِ يا ساحرْ ؟

(يظل الشاعر صامتاً فيهتاج طيفُ الجمال قائلاً) :

عجيبٌ ! ما تكلَّمْنا وكنت الهاتف الصادى
تطوفُ بنا وتعبُدنا وأنتَ الخافقُ الشادى
جحدتَ ولاءنا ومُنَى سُقيتَ رحيقها زمنا ؟
أم اشتقتَ الجمودَ على حياة هاجتْ الاحَنَا

(الشاعر لطيف الجمال) :

كيف أنساك والمشاعرُ ظمأى لحُلاك النديَّةِ القدسيَّهْ
كيف أسلوك والضلوعُ صوادٍ لأريج المفاتن العبقريَّهْ
أنتَ سرُّ الحياة أنت شذاها خالق الشعر فى الفؤاد الخلىِّ
أنتَ نورٌ مقدَّسٌ عبقرىٌّ يغمر الكونَ بالضياء السنىِّ
أنت رمزُ السُّمُوِّ والقبسُ الحا لدُ والشعلةُ التى لا تغيبُ
خصَّك الله بالخلودِ وقد صا نك فينا ذاك الجلالُ المهيبُ
لست يا حُسنُ ناكراً لجميلٍ شيمةُ الحرِّ أن يكون وفيا
نحن مِن طينةِ الوفاء خلقنا وعلى الودِّ والمكارم نحيا
ما هوينا سواك يا حسنُ لكنْ ساءنا من ذويك أن يتجنوا

آلمونا بصدّهم فهجرنا غير ناسين ما أنالوا وأسدوا

(طيف البغض للشاعر):

أتهوى مَنْ وفيت لهم فضنّوا وظنوا ما أتيت به رياء
وما كنت المنافق فى هواهم ولا كنت المسىء لمن أساء
أتنشدُ مَنْ سَلوْك بغير جرمٍ وباعوا حبّك السامى النبيلا
ودانوا للوشاة وما تروّوْا وكنتَ المالح الوُدّ الجميلا ؟
كفاك من العباد أذى كفاكا وحسبُك ما لقيت من الجحودِ
عليك بعقر دارك فهو أجدى ولذ بكتابك السَّمْح الودودِ
ولا تأسفْ على مَن ليس يفدى فؤادك بالأمانىّ العِذابِ
ولا تحزنْ على من قد تناسى ودادك واستكان الى الذئابِ

(الشاعر لطيف البغض):

رويدك ما عدلتَ ولا أصبنا أرمى بالجحود شعاع روحى
لعمرى قد كذبت على جمالٍ أعزّ لدىّ من قلبى الذبيح !
تنحَّ فلا رأيتَ العمر خيراً أتوغر من عزاء النفس صدرى
اذا أنا بعت ودّهم فمَنْ لى بمَنْ يهب الوفا ويصون سرّى

(ثم يطرق ويقول فى صوت محزون):

كل قلبٍ يعيش بالحبّ يشقى والخَلِىُّ السعيدُ فى أحلامهْ
ما عهدنا معلّقَ القلب يصحو مِنْ لظى وجدهِ ومن آلامه

(طيف الحبّ للشاعر)

حطّم اليأس وانسَ شجوكَ يا من خلد الكونُ حُبّهُ فى كتابهْ
حَسْبُك اليومَ أن تخلدك الشعرُ وأن تصبحَ الفريدَ النسابهْ
فبم اذا اليأسُ والحياةُ جهادٌ كيف تسمو اذا عدمتَ الشتاء
كن شقياً لتنعم الروحُ بالطهر وغرّد اذا فقدتَ الهناء
ليس من يطلب الحياة ليحيا فى ظلال السرور والنعماء
مثل من يطرق الحياة ليحيي أنفساً غالها نذيرُ الفناء

(الشاعر لطيف الحب) :

أنا وَحْيٌ من الخلود تجلّى ... فى سماء الدُّنى وطيفٌ عابرْ
أرسل الشعرَ من دمائى لحناً ... يسكر الروحَ والنهى والضمائرْ
لستُ ممن يقيم للغرّ وزناً ... أو يهاب اللئيمَ والمتنامرْ
ذقتُ حلوَ الحياة والمرَّ منها ... كيف أخشى من الجدود العوائرْ؟

(يسترسل الشاعر فى جوابه لطيف الحب متبرماً منه) :

إليك يا حُبّ عنى حسبُ ما بليتْ ... نفسى به من شجون دونها الحرَب
لجأتُ للحبّ كيما أستظلّ به ... فأبتُ بالخسر واحتاطتْ بىَ النوَبُ
وقلتُ بالحبّ يُشفى القلبُ من عِللٍ ... لاذتْ به ويزول الهمُّ والوصبُ
فما ظفرتُ بغير الحزن يجرعهُ ... قلبى الفتىُّ الذى أودَى به العطبُ

(يثور الشاعرُ فيخاطب جوانحه بالأبيات الآتية) :

ذاب قلبى فقطعى أوتارك ... يا ضلوعى وهشمى مزمارك
واندبى الحبَّ فى الغروب وفى الفجر وشُقّى عليه حزناً ازارك
وانشدى الساوة العزيزة فى الروض فنى الروض منتهى أوطارك
بين عُشب مرنح ونمير ... كالجين المذاب يروى أوارك
وطيورٍ هواتفٍ تتغنى ... بحديث الهوى فتسبى المدارك
وجمالِ الطبيعةِ الغرِّ الضا ... حك يجلو الشجونَ من أسفارك
فهلمى إلى الرياض لتنسى ... سالفَ الشجو وانشدى أشعارك

(يشتدّ به الاغراق فى الحزن فيودّع الحب) :

وداعاً أيها الحبُّ ... وداعاً قد ذوى القلبُ
وداعاً قد وهى جسدى ... وشابَ الرُّوحُ واللبُّ
كفانى دهرىَ القا ... سى وآمالاً بدت تخبو !

(يردّد البيت الآتى فى حسرة ولوعة) :

خداعٌ هذه الدنيا ... ومين ذلك الحبُّ !

(تثور الأطياف على الشاعر وينتهى به الأمر إلى المحاكمة ، وتهتف الأطياف بالمقطوعة الآتية) :

ظلومٌ ودَّع الحُبَّا وداعَ الخانقِ الشانى
وصامَ عن الهوى وصَبا وكان المشفقَ الحانى

(الشاعر يستنجد بخالقه):

خلقت لنا هذى المحاسنَ فتنة تلوذ بها عينٌ ويرشفها قلبُ
وصفت فؤادى من شعور مهفهف يُحسُّ أنين الروح إن راشه الهدبُ
وحذّرتنا من أن تراها عيونُنا فكيف خلقت الحسن والحب يا ربُّ
وروَّعتنا باللائمين فأسرفوا بلومهم حتى تفاقمتْ الحربُ
يثورون إن شاموا محباً رنا إلى حبيبة نفس حار فى برئها الطبُّ
فيا ربّ ما ذنب المحبين إن رنوْا لمن زانه الخلاق أو هتف الصبُّ؟
أنحيا ظماءً والمناهلُ عذبةٌ ونحرم مما قد أباح لنا الحُبُّ
حديثاً شهياً لا يُعاب وبسمةً تُضىء دجى قلبٍ ألمَّ به الخطبُ؟

* * *

لنا أملٌ فى الصفح عندك فى غد اذا نصب الميزان واحتدم الرعبُ
وليس لنا فى اللائمين اذا لَحَوْا رجاءٌ فكم تبنا وليس لنا ذنبُ
رمونا بأنّا خائنون وصدَّقوا رواية مَفْتُونٍ رَأى الودَّ لايحبو
فآلمهمْ فاندكَّ صرحُ ودادنا وكان حصيناً لا تطاوله الشهبُ
ولكننى مازلتُ للحبِّ راعياً أروِّيه من قلبى اذا ناله الجدبُ
وما ذُمَّ مَن يبقى على الود وافياً إذا نفر المحبوبُ أو هجر الصحبُ

* * *

خبرناضروب الحسن حتى تكشَّفت لنا حجبٌ قد حال من دونها الريبُ
فآمن منا صادقاً من بدا له بديعُ نظام الكون وانخذل الخبُّ
وما شعراء الحب إلا ملائكٌ رأوْا بعيون الحق ما ستر الغيبُ
فباتوا سُكارى بين رانٍ وساجدٍ وكلهمُ يشدو بما أبدَع الربُّ
وروَّوْا بما جادوا نفوساً صديةً إلى الحق كم ناقت وليس لها شربُ

(طيف الحبيبة يقبل على الشاعر ويصافحه قائلاً) :

كأنك ما خفرت العهد أو فرطتَ فى الحبِّ !
فذاك الرّوحُ يا أصفَى العباد وأشرف الصحب !

(الشاعر للطيف) :

سيعلم مَن أرلق دماءَ ودِّى اذا عجمَ الحياةَ ورامَ صحبا
بأنى كنتُ خيرَ من اصطفاه وانى كنتُ أسمى الناس حُبَّا
سيعلم فى الغداة إذا تراءى له غدرُ الصحاب مَن الوفىّ
ويأسف للوفاء خبا ودالت مَعالمهُ وقد عزّ الصفىّ
سأجعل ما حييت دمى فداءً لهم وأفى بأثمن ما أدينُ
وفيت لهم فكيف أحيدُ عنهم وهل أهبُ العهودَ ولا أصونُ
رُبيت على الوفاء وذاك طبعى وما من شيمتى غدرُ الخليلِ
ولا أنا جاحدٌ نِعَماً حبتها يدٌ غرّاء كالنسَم العليل

(الأطياف تلتفّ حول الشاعر وتنشد) :

يا لِبابَ الوفاء والودادِ الفريدْ
لا عدمت الهناءْ فى جنانِ الخلود

(ثم ينصرف الجميع فى نشوة وغبطة) .

محمد عبد الغنى بخيت